غرفت رجلاً يدعى « ماتيو » اتخذ الركض مهنة له . ولم يكن يعرف اباه الذي ذهب الى مكان مجهول ، فربته امه تربية لا بأس بها ، ولكن المال كان ينقصها غالباً فعلمته ان يستعطي .

ولكن ماتيو كان من شدة الاعتزاز بحيث لم يرض ، من دون خجل ، تجربة كهذه. لقد كان يفكر غالباً بالحرية ويود لو يترسم خطى أبيه. ولكن امه كانت تفتقر الى المال ، وكانت شديدة التعرض للمرض ، وقد بدأت تشيخ فلم يكن لماتيو ان يتركها من دون سند .

غير انه اتخذ لنفسه طريقة خاصة يستدر بها كرم الرجال، طريقة ترضي اعتزازه . كان فتى جميلا ، ذا وجه حالم يوحي بالبأس، وشعر اسود، وكان عريض الكتفين ، قوي الساقين صلبها ، وقد برزت عضلاتها ودق كعبها فظهرا ككعبي ماعزة . وكان ماتيو قد حل مشكلة الركض في المعارض والاحتفالات دون ان يمد يداً. كان يجتاز راكضاً سطوح المقاهي وساحات الفنادق . فطارت شهرته في البلد كله كمدّاء لا يعرف الكلل. وكان الجميع يعرفون انه كان يرفض الصدقة ، ولكنه كان يلم بطيبة خاطر ، اذ ير ، النقود التي وضعت على الطاولات من اجله . وقد نجحت هذه الطريقة بالنسبة له نجاحاً مدهشاً، ولم تكن حركاته مدعاة للشفقة بل للتعجب . كان يجمع المال ولم يكن كيسه ليفرغ ابداً .

كنت طفلاً عندما شاهدته ، بعد ظهر يوم ، في معرض القرية . وكنا نجلس الى الطاولة ، ابي وانا في حديقة فندق نستمع الى الموسيقى ونتأمل فرحة القرويين تتتابع امامنا . وكان يزيد هذه البهجة ان الشمس كانت تشارك فيها بجو جميل . ولا شك ان رأسي كان يدور من الخمر الذي شربته ومن هذه الحركة كلها ، واذ بصوت جلاجل يتصاعد من الطريق . انها عربة، من دون شك، قد وقفت ، كما كانت تقف كثيرات غيرها . ولكن صوت الجلاجل لم يهدأ . فخيل الينا انها ترافق الرقصات ، تارة اصخب منها ووطراً اهدأ كأنها تختبيء وراء سياج او حائط ، لتظهر بعد قليل ،بكل رنينها . وهاهي قد وصلت الى الحديقة .

وفتحت عيني . فاذا برجل مكشوف الرأس ، مرتد « مايو » احمر وبطلوناً اسود قصيراً ضيقاً حول الخصر يتوجه نحونا راكضاً وقد علق في كعبيه اجراساً صغيرة . وكانت عيناه تلمعان وشفتاه تنفرجان قليلاً كأنه يضحك . واخذ يدور حول طاولتنا وهو يركض ركضاً يشبه تحويم الفراشة ، فيقترب من احدى الطاولات احياناً حتى ليلامسها ، ويبتعد احياناً اخرى كأنه يفتش عن مخرج . حتى اذا ما وصل الينا ، اخذني الخوف من ان يمسني هذا العدّاء الغريب وربما يخطفني . اما اذا ابتعد فقد كان قلبي يخفق خوفاً من رؤيته يختفي . ولم اكن استطيع ان افهم لماذا يجهد انسان نفسه ليركض في يوم عيد وبهذا اللباس . كان ينضح ، فيسيل العرق على خديه، فاذا ألمّ بنا سمعنا لأنفاسه صخباً .

كان لهذا كله تأثير كبير في نفسي . الا ان الذي بهرني وغمرني خاصة بذهول حقيقي ، هو هذا الشعور الذي يوحيه بأنه ما فتىء من زمان يعدو وبأنه لم يتوقف قط عن الركض والدوران . لم يكن بأمكانه ان يقف ، سيركض وسيدور هكذا الى نهاية حياته ترافقه اصوات الجلاجل الدائمة التي كانت تميزه . لقد قضي عليه ان يركض دون ان يستريح .

« هذا ماتيو » ، قال والدي : « انه يركض في الأسواق وهذه هي طريقته في الاستعطاء . بعد قليل ، حين ينتهي من دورانه حول الحديقة يأتي ليلم الدراهم ، دون ان يتوقف ، فأعطه عشرة دراهم . »

ووضع ابي قطعة صغيرة في يدي . وجعلت انتظر ..

ظل ماتيو — ما دام علينا ان نناديه بهذا الأسم — يتابع طيرانه ، طيران الفراشة الأرضية ، وكانت دوراته لدقائق خلت قد ضاق نطاقها حولنا . ووضعت الدراهم على الطاولة وانتظرت حتى يقترب فيأخذها . لكنه لم يفعل . كانت ذراعاه مطويتين ومشدودتين على جنبيه وهو يعدو طائفاً بالجماعات ملامساً الطاولات حتى كان الهواء المنبعث عن ركضه يرفع جوانب الشراشف . وكان يدهشني ان ارى الناس وهم لا يكادون يولون حركاته اي انتباه، بينما كانت بعض النساء تضحك . على ان العدّاء لا يبدو اكثر منهم انتباهاً ، فهو لا يطلب منهم شيئاً بل يبدو متجاهلاً الدراهم التي وضعت له على الطاولات . وفي الوقت نفسه كنت اشعر بالغيظ والدهش وحين رأيته يقترب منا جمعت الدراهم ومددتها اليه . ولقد بهرتني نظرات العدّاء الثانية فقط، لأنه كان قد ابتعد ليتابع تحويمه الطويل حول الحديقة ، راسماً شكل اكليل حول الاعشاب ثم ، ليختفي من حيث أتى .

بقيت في ذهولي هذا ، وقد امتلأت اذناي برنين الجلاجل وسمرت عيناي على المخرج، ضاغطاً بعصبية قطعة النقود بين اصابعي حتى انني لم اكد اسمع والدي وهو يقول : « عجباً ، انه لم يأخذ شيئاً ، ولا شك في ان جيوبه ملأى » .

اعترف انني كنت ادهش لو رأيت هذا المخلوق الذي يتعالى عن الأرض ينحني ليأخذ الدراهم . صحيح انني مددت له دراهمي لأتخلص من شيء كان يحرق اصابعي وكأنما قد قيل لي : « اعطِ هذه الدراهم شيطاناً او ملاكاً . » لم يكن هناك شيء يصرفني عن الاعتقاد بانني كنت احضر مشهداً جهنمياً او سماوياً . انه الشيطان او احد ممثلي السماء بشخصه ، هذا الذي جمع اطراف الحديقة بدوائر ركضه، فبريق عينيه وابتسامة فمه ينطقان بذلك .

ربما كنت انسى تماماً هذه الحادثة من طفولتي لو لم تتسم نهايتها بمأساة . ففي اليوم التالي وجد هذا العداء الغريب ، ممدداً على ضفة حفرة ، يابساً ، وقد التصق « ميوهه » بجسده وغطست قدماه في الماء .

وانني احاول تمثل ما جرى له منذ الوقت الذي اختفى فيه عن عيني ، عيني الطفل المسحور . ان امتناع ماتيو عن اخذ الدراهم لا يمكن ان يفسر بملاحظة والدي الساذجة . فالرجل الذي يستعطي، الشحاذ المعتاد، ولو كان رشيق الحركة ، لا يرفض عن رضى قرشاً اضافياً . ولا ريب في ان ماتيو قد امتنع عن الشحاذة ذلك اليوم . لم يكن الاستعطاء منذ زمن طويل هو الذي يقوم به، وانما كان كالفراشة او كالنحلة يلتمس الغنيمة . لقد قذف بنفسه في الأجواء كالنحلة التي اصابها من فرط طيرانها الدوار . فمضى في ركضة ابدية . ومن المؤكد ان قلبه قد خفق بشدة في هذا النهار ، بشدة غير مألوفة ، خفق حتى انفطر . وحين رقد اخيراً على حافة الحفرة لم يكن ذلك من شدة التعب . لقد اراد ان يشرب ، فحتى الطيران يبعث على العطش وكان ان نام .

العدد القادم

عدد ممتاز خاص بالشعر

سيكون العدد القادم من « الآداب » عدداً ممتازاً في ١٠٤ صفحات ، خاصاً بالشعر ؛ وسوف يضمّ دراسات ضافية عن الشعر العربي الحديث في مختلف الاقطار العربية والشعر الغربي الحديث ، ومجموعة من احدث قصائد كبار الشعراء العرب ، فضلاً عن الابحاث والموضوعات التي تمت الى الشعر بصلة . وستنشر في هذاالعدد نتائج مسابقة « الآداب » في الشعر . احجزوا منذ الآن نسخكم من هذا العدد الممتاز الذي سيكون وثيقة ادبية هامة .

لقد ركض ماتيو كثيراً حتى انه تابع ركضه في نومه . وكان الليل قد هبط وامتلأت السماء بالنجوم . وقطع ماتيو السهل من غير توقف متخاصاً من جاذبيته الارضية يرافقه صوت جلاجله الجميل الذي يشبه انغام الجدجد الليلية . فاجتاز بسرعة الحقول،والانهار التي كان يقلد مجراها الملتوي . وها هو ذا بعيد من غير ان يشعر بذهابه ، وكل خطوة من خطاه وثبة جديدة .

حتى اذا بلغ منطقة الجبل بعد هذا التمهيد في السهول المنبسطة، اخذ يصعد ويهبط بانطلاق واحد اصلب المنحدرات، ويدور حول القمم فيجثم عليها لحظة وهو لا يني يحرك عقبيه ويردد اغنيته . ولكنه ما لبث ان جاوز الجبال وادرك البحر ، والمحيطات تتتابع امامه كأنها انعكاس للسماء رحيب ، كل موجة منه نجمة . وتقدم ردحاً من الزمن بمحاذاة الضفاف الملتوية ، فسجل عدوه مرحلة اخرى . انهانزوة من نزوات خاطره، كمن يراوح امام لذة ما ، قبل ان يرتمي فيها .

وانطلق فجأة ،وبقفزة واحدة،قطع بحراً بكامله ثم آخر لينعم بقوته . واذ كان المشي على الماء لذة كبرى ، فقد اجبر ماتيو نفسه على وضع قدميه فوق كل موجة ليجتاز اخر محيط ، وكل موجة مقفز له .

لقد بلغ هذا الموضع من الكرة ، حيث كل شيء صحراء ،وعدم،ورمال ممتدة لم تكد الرياح تخط عليها اثراً . لقد احست الارض باسرها وقع قدميه وسمعت صوت جلاجله . اتراه بقفزة واحدة سينجز رحلته ثم يرجع فيسلك الطريق نفسها ؟ إن الناس لا يحبون الصحاري . ومهما بلغ هوس العدّاء بالركض فليست لذة له ان يخلف على الرمال اثار قدميه .

وايا ما كان ، فهو لم يفكر حتى بهذا . فليس ماتيو بعداء عادي . انه يركض ، يطير ، والرمل ، بدلاً من ان يوقفه يدفعه ويحمله . مهما بلغ من عراء الارض المضاءة بالقمر حيث لا شيء ينمو ، ولا شيء يتقدم وحيث كل شيء يدعو الى التفكير بالموت ، ففيها يعدو الانسان خير ما يعدو اذ لا شيء يعترض سبيله . إن الخطوط المنحنية والتنميقات ليست الا هوى خالصاً . ليست الا اختراع السيقان والفكر . إن ماتيو يعدو منذ قرن . . فلا الوقت يحسب ولا اغنية الجلاجل تنتسب الى الارض انما هي النجوم التي تغني . واذ قطع الرمال برمتها من غير ان يترك زاوية ، اخذ يوسع دائرته ويضاعف قوة انطلاقه ، قاطعاً مراراً عديدة ،محيط الصحاري الكبير.لكأنه طير جارح يحلق ،ولكنّ عينيه لا تفتشان عن شيء وهو في غمرة المجد .

وحين افرغ سكرته كلها؛رأى رابية هائلة من الجليد هي ارفع ما صادف في طريقه ، تؤدي تواً الى السماء . اذ ذاك تحفز ماتيو وقفز ، فكانت كل مسافة يجتازها كدرجة سلم لا ينتهي؛ وكان كلما اعتقد انه وصل عاد كل شيء ليبتديء من جديد . وكانت ثمة نجمة في الافق ، اشد لمعاناً من سواها؛تبدو وكأنها تشير الى الهدف . واندفع ماتيو اليها ولكن انطلاقه تحطم : كانت النجمة تبتعد ابداً . كان يصعد، وجلاجله ترن؛ الا ان صوتها هو ايضاً كان كأنه يتلاشى . كان يحس ان قواه تخوّر وكان العرق يسيل على صدغيه . لقد زمجرت رئتاه : انه لن يبلغ الهدف . واي هدف هو ! انه لا يفكر به بعد .

وها هو يتذكر فجأة : لقد نسي ان يمد يده . يمد يده ؟ اجل ، كالعادة ، ليلتقط الدراهم . الدراهم ؟ هناك على الطاولة ولمن تكون،لامه، اتراه سيترك امه تموت جوعاً ؟

وتحولت ساقاه الخفيفتان الرشيقتان الى رصاص .وانقطع صوت الجلاجل وساد الجبل صمت الموت . ظلت عيناه معلقتين على النجمة ولكن قدميه ابتا الصعود فسقطتا وتدحرجتا على السلم جارفتين خلفهما كل ما تبقى .

ولا شك في ان قلب ماتيو ، انما توقف عن الخفق ، في هذه اللحظة بالذات . فوجدوه ، كما ذكرت ، على ضفة نهر .

وكانت قدماه اللتان غمرتهما المياه، تبدوان ؛وهما في تدفق الامواج كأنهما ما زالتا تعدوان.